

تحوّلات البنية الاجتماعية الجزائرية وأثرها في رواية "الانهيار" لمحمد مفلح.

Transformations of the Algerian social structure and their impact on the novel "The Collapse" by Muhammad Mufлах.

دراسة من منظور لوسيان غولدمان.

. A study from the perspective of Lucien Goldman

1-نادية طيب الرحماني

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية العامة والمقارنة

جامعة الجيلالي بونعامة -خميس مليانة – الجزائر--Nadia.taib_errahmani@univ-

dbkm.dz

2-أ. بن طيبة ابراهيم

جامعة الجيلالي بونعامة -خميس مليانة – الجزائر-brahimben85@hotmail.com

تاريخ الارسال 2024/01/11 تاريخ القبول 2024/10/05 تاريخ النشر 2024/11/01

ملخص:

حاولنا من خلال مقالنا هذا تقديم نبذة مقتضبة عن أهم الفترات التاريخية التي وسمت الرواية الجزائرية وتيماتنا المتناولة، كما سعينا إلى إزالة اللبس الحاصل تجاه مصطلح "البنية الاجتماعية" كأحد الأطر النقدية التي أسفرت عليها خطابات بنيوية غولدمان التكوينية، وامتد سعينا الحثيث ليطال الحديث عن البنيوية التكوينية كمنهج نقدي، وفي هذا الصدد آثرنا التعرّيج عن ممارسات النقاد الجزائريين لهذا المنهج الذي يعدّ تمجينا واضحا للبنيوية الشكلية مع الماركسية، و للإحاطة بموضوع "البنية الاجتماعية" من زاوية أكثر شمولية وقفنا على عتبة العنوان كنص موازٍ، وتقصينا من خلاله الدلالات التي من الممكن أن يكتنّزها كلّ عنوان في خضمه، فهو بمثابة المفتاح الذي يلج من خلاله المتلقي لسبر أغوار النص الإبداعي، وجعلنا من رواية "الانهيار" للروائي الجزائري محمد مفلح نموذجا يجتذّي به في الكشف عن تمثّلات أطر الخطاب النقدي الغولدماني تتقدّمها مقولة "البنية الاجتماعية"، لقد جسّدت رواية "الانهيار" بشخصها رؤيا الكاتب محمد مفلح للعالم، و قدّمت لنا أحد صور التناقض التي ميّزت البيئة الجزائرية، كما عكست لنا أثر التحوّلات التي مسّت جوهر البنية الاجتماعية، وما ساعد على تمثّل هذه الرؤى هو البنية النصّية التي اكتنّزت كلّ إمكانات الروائي التعبيرية، وإسهامها في التأثيث الروائي العام الذي يتساقق ويحمل التحوّلات التي عرفتها البنية الاجتماعية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية:

الرواية الجزائرية، البنيوية التكوينية، البنية الاجتماعية، البنية النصّية، رؤية العالم.

Abstract:

Through this article, we have tried to provide a brief overview of the most important historical periods The Algerian novel and its themes dealt with, and we sought to remove the ambiguity surrounding the term "Social Structure" as one of the critical frameworks that resulted in Goldman's formative structuralist discourses Our relentless pursuit extended to talk about structuralism as a critical approach, and in this regard we preferred it Examine the practices of Algerian critics for this approach, which is a clear hybridization of formal structuralism With Marxism, and to cover the issue of "social structure" from a more comprehensive angle, we stood at a threshold The title as a parallel text, and we investigated through it the connotations that each title could contain in the text In its midst, it serves as the key through which the recipient enters to explore the depths of the creative text The novel "The Collapse" by the Algerian novelist Mohamed Mefleh is a role model in revealing the representations of frameworks Goldman's critical discourse is preceded by the saying "the social structure", which embodied the "collapse" novel With its characters, the vision of the writer Muhammad Muflah for the world, it also presented us with one of the forms of contradiction that characterized the environment Algerian, as it reflected to us the impact of the transformations that touched the essence of the social structure, and what helped to These visions represent the textual structure that contained all the expressive capabilities of the novelist, and contributed to The general sexual tanit That is consistent with the over all changes in the social structure The algerian.

Keywords:

The Algerian Novel, the formative structuralisme, the social structure, the textuel structure, vision of the world .

1. مقدمة :

لقد سطع نجم فن الرواية في البيئة الثقافية والأدبية أيام ازدهار الأدب الجزائري وقتذاك وتنوعت أشكاله التعبيرية، على غرار جنس الشعر، القصة القصيرة، والمسرحية، المقال وهلم جرا مما زخر به أدبنا الجزائري قديمه وحديثه، وفي وقت ليس ببعيد كان فيه الشعر هو لسان حال قومه.

تغيرت الذائقة الأدبية تبعاً للتحويلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي شهدتها العالم برمتها والمجتمع الجزائري على وجه الخصوص، ليعتلي فن الرواية الريادة والصدارة كما وكيفا، سواء من ناحية الشكل أو المضمون في أواسط النخبة المثقفة، فالرواية أصبحت اليوم بمثابة "ديوان العرب" ذلك أنها أساحت حبر الكثير من المبدعين الجزائريين نظراً للمساحة التعبيرية التي أتاحتها لهؤلاء لسكب هواجسهم وطموحاتهم وآمالهم وتطلعات أفراد مجتمعاتهم، كونها من أفدر الفنون على استيعاب أجناس تعبيرية لا تمت لبنائها العام بصلة.

وبفضل اتساع فضاءها التخيلي الذي يمكن القارئ الحصيف من سبر أغوار ما تحتبئه النفس البشرية، وذلك تبعاً لما تنطوي عليه من خصائص وفتيات تتيح أيضاً فرصة تقديم هواجس وتخيلات الكاتب في خضم فضاءها التخيلي، ولطالما كانت الرواية الجزائرية رغم تجربتها القصيرة سبّاقة لاحتضان هموم الشعب وعكس متناقضات الواقع المعاش، على أنّ جلّ المضامين المتوخاة من قبل هؤلاء المبدعين قد انصبت في قالب روائي ما فتئ أن يتجاوز أطر النمط الكلاسيكي التقليدي المعهود للرواية منذ إرهاباتها الأولى المعلن عن بواكيرها في البيئة الغربية الأوروبية ليعانقوا مستحذات التحريب الروائي الفني، وما لبثت أن تولد وتترعرع وتتطور في كنف بيئة جزائرية عكستها المضامين جملة وتفصيلاً حتى استلمتها ألسنة النقاد الجزائريين الذين وضعوها تحت مجهر القراءات والمقاربات النقدية التي صوّبت نظرها إلى الرواية الجزائرية كلّ واحد من هؤلاء أخذ بمطية أحد المناهج النقدية الغربية السياقية منها

والنّسقيّة، وإنّ كنّا نعوز سبب تأخر التجربة التّقديّة الجزائرية إلى تأخر الفن الرّوائي الجزائري في حدّ ذاته، هذا بالإضافة إلى دواعي أخرى ليس مجال الحديث هنا عنها في هذه الورقة البحثيّة.

1- الرّواية الجزائرية والتحوّلات الثقافيّة والاجتماعيّة:

بقيت الرّواية الجزائريّة منذ إرهاباتها رهينة بتمثّل الواقع وعكس مضامينه وتناقضاته، وبرغم تجربتها القصيرة إلّا أنّها تمكّنت من تجاوز مثيلاتها من فنون الأدب الجزائري والمكتوب منه باللّغة العربيّة على وجه الخصوص، فضلا عن أنّ بدايات هذا الجنس النثري كانت قد أسالت حبر أقلام روائيين جزائريين باللّسان الفرنسي كخطوة سابقة عن الرّواية المكتوبة باللّغة العربيّة.

مما لا شكّ فيه بأنّه لكلّ جنس أدبيّ بدايات تأسيسيّة رغم قصورها المنهجي غير أنّها كفيلة بالتأريخ لمساره التاريخي، وإذا ما تتبعنا عن كثب البدايات المصاحبة لفن الرّواية في الجزائر فإنّنا نجد أسماء أدبيّة برعت في هذا الفن وأكسبته سمة الخصوصيّة والفردية، ومردّد ذلك يعود إلى طريقة طرح هؤلاء المبدعين وكتّاب الرّواية لمضامين وأبعاد نتاجاتهم الرّوائية الإبداعية، وذلك من خلال توسلهم بمجريات الواقع وعكس متناقضاته وصراعاته الكائنة في محاولة سديدة من طائفة المبدعين الرّوائيين الجزائريين تسليط ما أمكنهم ذلك على ما يشهده المجتمع الجزائري من تغيّرات ملحوظة مسّت جوهر البنية الاجتماعية ككل وذلك عبر فترات متزامنة تركت بصمات واضحة في سائر المشهد الرّوائي الجزائري.

ومن جملة ما قيل هذا الصّدّد "صحيح أنّ الرّواية الجزائرية حديثة العهد بالظهور، والمكتوب منها باللّغة العربيّة أكثر حداثة، إلّا أنّنا لا نستطيع القول أنّها منذ ظهورها الأول قد اقتحمت السّاحة الأدبيّة بشكل قويّ، فإذا ما استثنينا المحاولات الأولى البسيطة المتمثّلة في (غادة أم القرى)، (طلّال المنكوب)، (الحريق)، فإنّ (ريح الجنوب) تبقى تلك الرّواية النّاضجة التي أعلنت البداية الحقيقيّة القويّة للرّواية الجزائرية باللّغة العربيّة"¹.

وبهذا تظهر لنا البدايات الأولى المبدولة في كتابة الرواية الجزائرية والتي اتفق النقاد على أنّ أول هذه الإرهابات والجهود قد توجت برواية "ريح الجنوب" للروائي عبد الحميد بن هدوقة، ثم انطلقت الكتابات الروائية بعدها لتشكّل لنا رصيда أدبيا روائيا ناضجا، من خلال قيام مبدعو ورواد الرّواية الجزائرية الفنّية المكتملة الملامح ليشقوا طريقهم نحو معانقة كلّ ما هو مستجد في السّاحة الإبداعية الرّوائية الغربية الأوروبية وحتّى العربيّة، مواكبة منهم للزّاهن المفروض ومحاوله لكسر أفق توقّعات القارئ الذي أضحى شغوفا وتوّاقا لاحتضان نتاجات روائية جزائرية من عقر مجتمّعهم هذا من جهة، وتحقيق قفزة نوعية في مجال الكتابة الإبداعية الرّوائية الجزائرية من جهة ثانية.

ففي عرف النّظريات الفلسفية والفكرية التي عنيت بالبحث في تلك الجدلية القائمة ما بين الأدب والمجتمع أمكننا القول بأنّها في مجموعها تقرّ بتلك العلاقة والصلة الوثيقة فيما بينهما وقد جرى اتفاق آراء النّقاد الفلاسفة على هذه الفكرة، وفي ذات الشّأن وانطلاقا من المقولة القائلة بأنّ "الأديب ابن بيئته" أو مجتمعه إن صحّ التعبير والقول، ذلك أنّ المبدع عندما يكتب ينطلق من فكرة جوهريّة مفادها مدى فاعلية ونجاعة من ينشره المبدع في نقل صورة حيّة وصادقة عن المجتمع الذي يعيش فيه، ثمّ إنّ عمله هذا

من وإلى المجتمع فهو بمثابة آلة تصوير أدبية يتفنن من خلالها في نقل صور من الواقع بصرف النظر ما إذا كان هذا الأدب انعكاسا مباشرا أم لا، فمفاد الحديث ها هنا هو التأكيد على علاقة الأدب بالمجتمع، وحرّي بنا القول في هذا الصدد بأن:

"الرواية الجزائرية سواء المكتوبة بالعربية أم الفرنسية تعيد صياغة المجتمع بوصفه كيانا موضوعيًا يتميز بوجوده المستقل عن الذات، لكن هذا الوجود ليس مفصولا تماما عن الذات المبدعة أو كحركة حتمية ميكانيكية، وإنما هي علاقة مؤسسة على صلة جدلية وثقى بين الأدب والواقع صلة تعترف بدور الأدب في عملية التغيير وإنه لا قيمة لنص أدبي لا يحركه هاجس التغيير"².

ما يعني أنّ علاقة الأدب بالمجتمع هي علاقة جدلية لا غنى للمبدع عن تمثّل مجريات واقعه المعاش وعكسه بحرفية وإبداع، ليعيد صياغته ضمن قالب نثري تخيلي يتساق ومحدّدات الرواية التّاضحة فنيًا مكتملة الملامح، ولئن كانت بدايات الرواية في الجزائر لصيقة بالواقع المعاش آنذاك، لئن وجدنا تيمة الثورة قد أرخت بسدولها على أغلب التّنتاجات الروائية واستمرّ الروائيون يحيطونها بحالة من القداسة حتى بعد انقضاء زمن الثورة، ليس هذا وحسب فقد طرق الروائي الجزائري مواضيع ذات صلة بالواقع الزّاهن وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر: موضوع الثورة الزراعيّة، المحرّة، الأرض... وهلمّ جرأً، وبهذا كانت الرواية الجزائرية تصويرا للواقع المعاش متمثلا بالثورة كتيمة أساسية وسمت المشهد الروائي الجزائري فترة السبعينات وما يرتبط بها من أحداث أثرت على المجتمع وغيّرت في معتقداته وسلوكياته وعاداته ومنطق التفكير والوعي.

لقد مرت الكتابة الرواية الجزائرية بمراحل أثرت على عناصرها الفنيّة الشّكلية وعلى دلالات المضمون الروائي من خلال ارتباطها بما يحيطها من نواحي ثقافية واجتماعية، وعلى إثر هذا "مرت الرواية الجزائرية وهي تسعى لتشكيل خطابها المتميّز بمراحل سواء على المستوى الفنيّ أو المضمونيّ ومع ارتباطها بالسيّاقات الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة أحصى لها الدّراسون والباحثون ثلاث مراحل متباعدة فكانت فترة السبعينيّات تقابلها مرحلة التأسيس، وفترة الثمانينات تقابلها مرحلة التّأصيل، ثم تأتي فترة التسعينات وما بعدها تقابلها مرحلة التّحريب"³.

مرت الرواية العالمية بمتغيّرات وعوامل أدت إلى تطور كتابتها وهذا ما عرف عن الرواية أنّها في طور التطور والتشكيل، وهذا انعكس على الرواية العربية التي كانت تشهد أوضاعا متغيرة بفعل التغير والتحول في المجتمع العربي، وهذا ما انطبق على الرواية الجزائرية التي شهدت ومع بداية القرن الواحد والعشرون ومواكبة للتطورات الزّاهنة بفعل العولمة والثّورة التكنولوجيّة والانفتاح الصّارخ الذي أصاب مختلف القطاعات والميادين الحيّاتيّة انبثقت الرواية الجديدة بوصفها حتميّة وضرورة ملّحة نادى به دعاة التجديد والزّواد الأوائل بوصفها نمط سردي عصي عن الثّبات وفي تغير دائم يسعى مبدعوه من خلال ثورة التّجديد التي دعوا إليها إلى مسايرة واللّحاق بركب التّحريب الفنيّ الروائي.

لقد عرفت الجزائر عدّة تحولات سياسية واجتماعية غداة الاستقلال على غرار فترة السبعينيات والتّهج الاشتراكي والذي على إثره دخلت الجزائر معترك حياة جديدة، ليكون بذلك حلّا بديلا بغية التّهوض في كافة القطاعات الحياتية بما في ذلك الجانب الاقتصادي، عقبته فترة الثمانينات التي صاحبته أحداث 5 أكتوبر 1988، ليعرف المجتمع الجزائري مطلع التسعينيات صراعا همجيا من نوع آخر كان أكثر دموية وألما وفضاعة وفيما عرفت تلك الآونة العصيبة من حياة الجزائريين ب "بعشرية الإرهاب".

وحرّي بنا القول في هذا الصدد بأنّه كما خلّفت كلّ فترة على حدا أثرا في النفوس والضمائر فإنّها تركت بصماتها واضحة على سائر التّنتاجات الروائية التي أعلن عن عتباتها كتابها ومبدعوها، هي محطّات تاريخية هامة من تاريخ المجتمع الجزائري شهدنا لها حضورا مكثّفا وواسعا من خلال نتاجات مبدعي الرواية الجزائريين، فهم من حملة القلم الرّاقى والكلمة السّامية والهادفة الدّين

أخذوا على عاتقهم مهمة التعبير بصدق عن مجريات واقعهم، وعكس متناقضاته على التحو الذي يرقى بمصاف أعمالهم الروائية إلى مستوى التضج والفنية و فيما يشهد لهم بالبراعة اللغوية والملكة التعبيرية الخلاقة التي أتاحت لهم تحيّر مضامين وأبعاد ذات صلة حميمة من واقعهم المعاش.

لقد كان هذا بالمختصر عرض لأهمّ الفترات التاريخية التي مرّت به الرواية الجزائرية ذات التعبير العربي، والتي وسمت مسار جلّ التحوّلات التي شهدتها المجتمع الجزائري في كافة الأصعدة الحياتية، ثمّ إنّ برغم القصور المنهجي والمعطف التقليدي لحوحو الذي لازمته ردحا من الزمن قبل معانقتها لتقنيات السرد المستحدثة، غير أنّه يكفيها حضور المضامين والدلالات الاجتماعية ليصبح الفن الروائي صورة عاكسة للمجتمع.

يأتي الطاهر وطار، واسيني الأعرج، عبد الحميد بن هدوقة، محمد مفلح، الجيلالي خلاص، أحلام مستغانمي، أمين زاوي، بشير مفتي، في طليعة الأدباء والمبدعين الجزائريين الذين كان لهم بحق فضل السبق وشرف البدء في بلورة معالم تجربة روائية جزائرية فنية ترقى لمستوى التضج والفنية، تسعى لمضاهاة نظيرتها عند العرب والغرب على حد سواء، فضلا عن حرص هؤلاء لإغناء مضامين نتاجهم الروائية بما هو راهن في المجتمع الجزائري الذي شهد محطات أساسية وتحوّلات هامة مسّت جوهر بنيته الاجتماعية العامة، بصرف النظر عن آليات السرد الموظفة من قبل هؤلاء المبدعين عبر فترات الكتابة الرواية المتعاقبة في الجزائر ومنذ البواكير الأولى التي أعلن عنها سنة 1944م مع رواية "غادة أم القرى" للروائي والقاص الكبير "أحمد رضا حوحو".

2-إضاءة حول الخطاب النقدي الغولدماني:

عقب ظهور المناهج السياقية وما تلاها بعد ذلك من مناهج نسقية والتي اكتسحت الساحة النقدية آنذاك، هي الأخرى جعلت من الناقد العربي في المقام الأول والجزائري في المقام الثاني مشدوها إليها، تواقا لاحتضان آلياتها الإجرائية ووضع ما تعج به الساحة الأدبية الجزائرية من نتاجات روائية تحت مجهرها، وفيما ذكرناه آنفا فإنّ لتأخر النقد الأدبي في الجزائري مبررات ودواعي ليس مجال الحديث عنها هاهنا.

ولأن صوّب كلّ منهج نقديّ بآلياته الإجرائية نظره تجاه كلّ من المبدع (المؤلف) من جهة، ليعنى منهج نقدي آخر بالنص (المؤلف)، في الوقت الذي ظهرت فيه مناهج نقدية ما بعد بنوية صوّبت نظرها تجاه متلقي العمل الإبداعي، نظرا لأهمية هذا الأخير في العملية الإبداعية ذلك أنّه يقوم بإنتاج النصّ ويقدم التأويلات والدلالات الممكنة التي يكتنزها العمل الأدبي، لذا فدوره لم يعد مرهونا بتلقي وقراءة النصّ دوّما إضافة تذكّر، بل أصبح مشاركا هو الآخر في العملية الإبداعية، ومن جملة المناهج النقدية الغربية التي أخذت نصيبا من المقاربات النقدية الروائية الجزائرية: نجد **البنوية التكوينية Structuralisme** « **généétique** » أو التوليدية، فرع من فروع البنوية نشأ استجابة لسعي بعض المفكرين والنقاد الماركسيين للتوفيق بين طروحات البنوية في صيغتها الشكلائية، وأسس الفكر الماركسي الجدلي في تركيزه على التفسير المادي الواقعي للفكر والثقافة عموما⁴.

"يعدّ لوسيان غولدمان L. Goldman من أهمّ النقاد الماركسيين الذين قفّزوا بالنقد الجدلي من دائرة التنظير الإيديولوجي التضالي إلى دائرة التحليل العلمي، ومن سجن القراءات الانطباعية إلى فضاء البحث النقدي المؤسس على جهاز متكامل من الأدوات الإجرائية"⁵. فمنهج غولدمان البنيوي التكويني يركز على "بحث العلاقات بين الأثر الأدبي والطبقات الاجتماعية لعصره"⁶.

كان هذا بمثابة تنظير عام حول البنيوية التكوينية آثرنا التعرّيج عليها وعن مفهومها قبل خوض غمار الحديث عن احتضان الممارسات النقدية لهذا المنهج على الصّعيدين العربي والجزائري، وفي هذا الصّدد لا يمكننا بأيّة حال من الأحوال نحن كباحثين أكاديميين مهتمين بالأدب الجزائري إغفال الممارسات النقدية الجزائرية التي وسمتها مدوّنة كلّ من الناقد عبد المالك مرتاض وعبد الحميد بورايو ودراسته الرائدة المتميّزة حول "الأجساد المحمومة" لإسماعيل غموقات.

هذه المقاربة النقدية الجادّة من قبل الناقد أسفرت عن الأخذ بمطية منهج بنيوي تكويني، كما تبّدت ملامح وأطر هذا المنهج النقدي بصورة واضحة وجليّة من خلال كتاب الأستاذ عبد الحميد بورايو المعنون بـ "القصص الشعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانيّة" ليعتبرها الناقد أول ممارسة نقدية بنيوية تكوينيّة تطبيقية، وفيما يذكر أنّه قد سبقها محاولة الناقد محمّد ساري الموسومة بـ "البحث في النقد الأدبي الجديد سنة 1984"، فالأستاذ عبد الحميد بورايو "يبدو أكثر صراحة في التعامل مع الجهاز الاصطلاحي للبنيوية التكوينية، رغم أنّه يكتفي بالبنيويّة وصفاً لمنهج في دراسة القصص الشعبي، إلّا أنّه سرعان ما يفصح عن هذا الانتماء التكويني من خلال تعاطيه لمصطلحات غولدمانيّة"⁷، على غرار مصطلح البنية الدلالية، الفهم والتفسير وغيرها هذا من الأطر والآليات الإجرائية التي تعتبر بمثابة عمود فقري وعدّة إجرائية لا بد لكلّ محلّل بنيوي تكويني أن يعتد بها في خضم ممارساته النقدية للأعمال الإبداعية.

3- البنية الاجتماعية كمصطلح نقدي بنيوي تكويني:

قبل ولوج موضوعنا الأساس المنوط بالبحث في تفصيلاته نحن كباحثين أكاديميين ألا وهو تقصّي الكيفية التي تمثّل بها الروائي صورة المجتمع الجزائري من خلال نتاجاته تلك الصّورة الأدبية التي تعبّر في حقيقتها عن بنيته الاجتماعية العامّة والتي لا محالة لم تبق على هيئتها الأولى إنّما تشوّهت ومسّها تغيير ملحوظ بفعل دواعي وأسباب تداخلت فيما بينها لتعلن لنا صراحة عن استجابة كتاب الرواية الجزائريين لروح العصر ومتطلبات رهن واقعهم المعاش وذلك بالتحديد ما أفصحت عنه نتاجاتهم الروائية إن على مستوى الشّكل والقالب التعبيري الذي جعل من معمارية فن الرواية لا يثبت ولا يستقر على حال واحدة، ونعوز سبب عدم الاستقرار والثبات على فنيات واحدة إلى أن الروائي الجزائري لطالما لم يبق حبيسا لأطر الرواية الكلاسيكية المعهود إنّما جعل من كتاباته الإبداعية سيلا جارفا من نسيج الأفكار والتّخيلات التي ضمّنها وفق ما اقتضته وسنحت به تلك التقنيات السردية المستحدثة، أو حتّى على مستوى المضمون والمحتوى المتوخى الذي ما برح مبدعوه مواكبة راهنهم المعاش.

كان لزاما علينا التّطرق إلى هذا المصطلح من منظوره النقدي، خاصّة إذا ما علمنا بأنّ مصطلح "البنية الاجتماعية" يعتبر من الأجهزة المفاهيمية التي أسفرت عليها طروحات الناقد المجري "لوسيان غولدمان" البنيوية التكوينية التي يعتبر الفكر الماركسي الجدلي أساسها المنهجي والفلسفي إلى جانب البنيوية الشّكلانية وفي اعتمادها مبدأ الحايثة ورفعها لشعار ومقولة "موت المؤلف".

لم نأثر التعرّيج على الجانب المفاهيمي الاصطلاحي لمصطلح "البنية الاجتماعية"، ذلك أنّ أمهات الكتب القديمة على غرار معجم "لسان العرب" و"المعجم الوسيط" قد أفردت بابا واسعا للحديث عن هذا مصطلح "البنية" في حدّ ذاته بهدف إزالة اللبس في الحاصل جرّاء تقارب المفاهيم والمصطلحات والمسميات فيما بينها، كما أنّ مجال الحديث لم يبق في حدود التنظير والتعريف اللغوي وذلك بالموازاة مع ظهور القواميس والمعاجم المتخصصة الحديثة منها والمعاصرة والتي خصّصت دراستها الموجهة صوب الأدب والتقدّ نحو مصطلحات النقد والسرد.

، وفيما هو آت عرض تفصيلي لتمثّلات "البنية الاجتماعية" في الرواية الجزائرية المعاصرة على وجه التحديد والتي لم تبق في حدود التنظير بل تجاوزت ذلك من خلال احتفاء الروائيين الجزائريين بطروحات الخطاب النقدي الغولدماني وذلك بالموازاة مع التغيّرات الجذرية التي مسّت جوهر البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجزائري وقتذاك وإلى يومنا هذا.

3- العتبات النصّية (دلالة العنوان): يدخل العنوان والإهداء، العناوين الفرعية، الاستهلاطات، ضمن إطار "العتبات النصّية" التي اعتبرها النقاد بمثابة نص مواز للمتن الروائي، دون غيرها من آليات التحليل السيميائي (البنية السطحية، البنية العميقة، المربع السيميائي، الترسّيم العامليّة، المسار السردّي... إلخ، وتعدّ عتبات النصّ (paratexte) من أبرز المتعلّيات النصّية إلى جانب التناص، والنصّ الواسف... فالعلاقة بين "العتبات النصّية" و"المتن الروائي أو القصصي" هي "علاقة جدلية قائمة على التبيين والمساعدة في إضاءة النصّ الداخلي قصد استيعابه وتأويله والإحاطة به من جميع الجوانب"⁸.

يتراءى لنا عنوان الرواية التي بين أيدينا وهو "الانهار" بأنّه ورد مصدرا معرّفا بالألف واللام مشتقا من الفعل "انهار، ينهار، انهارا" ودون العودة إلى أمات الكتب والمعاجم العربية القديمة، فإنّه للوهلة الأولى يتبادر لأذهاننا بأنّ كلمة "الانهار" هي نقيض لكلمة البناء، لكن لم يرتبط هنا معناها بالمعنى المادي للكلمة فحسب وإنما أخذ المعنى البعد النفسي للكلمة، ذلك أنّ الشّخصية المحورية التي انتقاهما الروائي مثلا من قاع المجتمع الغيليزاني والتي جسّدت رؤياه للعالم منذ بداية النصّ وحتى إعلانه عن النهاية المأساوية لمحفوظ بطل الرواية، فعنوان "الانهار" يجسّد معنيين:

تمثّل الأول من خلال محاولة الروائي محمد مفلح التعبير عن الواقع الجزائري بصفة عامة، وعن بيئته المحليّة بصفة خاصة، وما آلت إليه بفعل تغيّر أنماط التفكير والانفتاح الثقافي الذي غزى العقول والأذهان حتّى وإن بدا ذلك التحوّل في غمطية العيش والتفكير في البنية الاجتماعية ضرورة حتميّة عند البعض منهم، و منافيا لما هو متوارث وسائد ومتفق عليه عند البعض الآخر، ضمّن الروائي في شكل تناصات من القرآن الكريم، ضف إلى ذلك الأمثال الشعبيّة المتوارثة المعبرة عن بيئته المحافظة.

جسد الثّاني شخصية "محفوظ" الذي استبد به هوس الكتابة الروائية الذي لم يصبو إليه بفعل استسلامه لنوائب الدّهر من فقر وعزلة وانطوائيّة، ثمّ ما لبث أن يخرج عن صمته وكتبته وإن اعتبر ما قام به مخالفا لأعراف وتقاليد الحيّ الشعبي "حيّ الرّق" التي يعيش فيه حتّى تحقّق في آخر المتن الروائي معنى "الانهار" من خلال الجريمة الشنعاء التي ارتكبها محفوظ في حق زوجته وهو تحت تأثير نيران الغيرة والضغوظات النفسية التي استولت على منطق تفكيره ودفعته به في آخر المطاف إلى القيام بمثل هذا السلوك الغير سوي، ومن خلال تصوّرنا الذي قدّمناه فإنّ "الانهار" ماهي إلا عمل إبداعي أذبي قدّم لنا أحد صور الانهار التي مسّت البنية الاجتماعية وما آلت إليه بفعل تسارع العولمة والانفتاح الصّارخ الذي فتح باب الآفات والظواهر الاجتماعية والعادات الدّخيلة المنافية للتقاليد المتوارثة على مصرعيه.

فتركيزنا على دلالة عنوان "الانْهيار" من شأنه أن يجعل منه مطيعة للبحث والدراسة ذلك أنه هاهنا بمثابة علامة جوهريّة، وعنصر أساسي لا غنى عنه في استراتيجية الكتابة التي ينتهجها الروائي، ف"الانْهيار" إلى جانب العناوين الروائية التي وسمت مسار محمد مفلّاح على غرار "الانفجار"، "المدينة الحمراء"، "الانكسار"، "هجوم الزمن الفلّاق" وغيرها، هي عتبات نصيّة وفق الروائي في انتقائها إلى حدّ كبير في اختياراته للعناوين التي وسمت متونه الروائية، ذلك أنه بقي منذ بداياته الأولى التي شق فيها عباب الفن الروائي مشدوها للتحوّلات الاجتماعية التي أحدثت خلخلة وتغيّرا واضحا في البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري،

ولئن جاءت أغلب النصوص الروائية متراوحة بين المداورة والتّصريح فإنّ "الانْهيار" يحمل من التلميح ما يجعله عتبة نصيّة تشدّ القارئ وتجعله حتى في غنى عن قراءة المضمون لأول وهلة وإن كان ضروريا لتكشف جلّ الآليات السردية الموظفة من قبل صاحب العمل الروائي، ففهم المعنى المتوارى والخفي من خلال عنوان "الانْهيار" يجعل منه مفتاحا يكتنز مختلف الدلالات والتأويلات الممكنة وهي مهمّة يخولها الروائي المتلقي العمل الإبداعي ليصبح مشاركا بدوره في عملية إنتاج المعنى، ولتكتمل معه أقطاب العمليّة الإبداعية، واهتمامنا بالعنوان "الانْهيار" راجع إلى أهميته بالدرجة الأولى في الدرس التقدي ثمّ إنّه "تأتي أهمية الوقوف على العنوان في كونه أول ما يصادفه المتلقي في طريقه إلى عالم النص، وأول عتبة يجتازها وهو يعبر إلى الغايات النصيّة"⁹.

يعتبر العنوان العتبة الأولى في طريقنا للدراسة والبحث والتحليل الأدبي، فهو أول ما يصطدم به المتلقي ويلفت انتباهه ويبنى عليه تصوّره ويقيم له في ذهنه تصوّرا معينا يشمل ويضم ما يقوم عليه العمل الأدبي وما يعتريه من غايات يسعى الروائي لإيصالها إلى المتلقي وتحقيقتها في وعيه.

يضيف مصطفى فاسي في الشّأن ذاته "للروايات مفاتيحها التي تفتح مغاليقها كما أن للمدن خرائطها التي تقي الغريب من الضياع فيها، ومفاتيح الروايات هي عتباتها الفنيّة المحبوكّة بعناية"¹⁰.

ما يحيلنا إلى القول بأنّ المبدع لا يختار عناوين نتاجاته الإبداعية اعتباطا أو جزافا وإنّما يتقصد من وراء تلك الكلمة أو الكلمتين اللّتان ينتقيهما للتصدرا واجهة عمله الروائي المبدع، معنى خفيا متوارى خلف جلباب العنوان حاملا في طيّاته معنى عميقا يمت بصلة حميمة للمتن الحكائي المتخيل.

4- البنية الاجتماعية في رواية "الانْهيار" لمحمد مفلّاح:

يعدّ الروائي الجزائري محمد مفلّاح من الكتّاب البارزين الذي ذاع صيت إبداعهم ضمن نتاجات الأدب الجزائري الحديث منه والمعاصر، ذلك أنه عبّر من خلال أعماله الروائية عن مدى ملازمته كأديب وعضو فاعل في المجتمع للمتغيرات التي مسّت البنية الاجتماعية والاقتصادية، ممّا أردف تغيّرا وتطورا مشهودا في معمارية أغلب التّناجات الأدبية الروائية الجزائرية.

فالروائي الجزائري ضلّ مشدودا لكلّ راهن يُرمى به في أحضان السّاحة التقديّة والأدبية في محاولة صائبة منه لمسيرة ركب الحداثة التي ما برحت تنفك عن هذا الجنس الأدبي الحديث النشأة والظهور، على أنّ أغلب نتاجاته الروائية المبدعة قد عكست مضامين وأبعاد اجتماعية وسياسية، ذلك أن المجتمع الجزائري قد شهد تحولا جذريا من هذين الجانبين الحياتين بخاصة، ومن ثمّ سكبها في قالب سردي تجاوز أطر المعطف الكلاسيكي التقليدي الذي لازمته الرواية الجزائرية وما برحت تنفك فترة من الزمن، فمحمد مفلّاح من الوجوه الأدبية التي كانت ومازال نجم في العطاء الأدبي لم يافل على غاية يومنا هذا، تبعا لخصوصية الكتابة الروائية التي تميّزت بها نتاجاته الإبداعية، فمن رحم الواقع الاجتماعي يمتح مادته الخام ويستقي رؤاه من معينه، وإمكاناته التعبيرية التي لا محالة تشهد له بالبراعة والحرفيّة.

تعتبر رواية "الانهار" للروائي الجزائري محمد مفلح من بين النماذج الروائية الجزائرية الحديثة التي حاول من خلالها المبدع محمد مفلح "تقديم صورة واضحة وجليّة عن أثر تحوّلات البنية الاجتماعية في المجتمع الجزائري و إذا ما أردنا التحديد بدقة في البيئة الغليزانة المحلية التي تعتبر مسقط رأس الروائي محمد مفلح" ليضيف بذلك عملا إبداعيا آخر إلى خزانة نتاجات أدبنا الجزائري الثري والزاخر، فرواية "الانهار" قدّمت لنا أحد صور التناقض الحاصل في المجتمع الجزائري والذي جسّدته شخصيات الرواية على غرار شخصية "محفوظ" المحورية كنموذج عن الإنسان الراقى والمتعلم والمثقف الذي استبدّ به هوس الكتابة الروائية عن شخصية "حمزة المزلوط" كان هو الآخر نموذج أدبي فني ومثال عن الإنسان الجاهل السكير الذي استطاع أن يخلق لنفسه مكانة ويتخلّص من وضعه المعيشي المزري البائس الذي كان مرتعا للفقر والحرم، وذلك بمغادرته لحي "الرق" بصحبة "الشيخة الزنانة" فهذا الأخير لم يبق حبيس أفكار مجتمعه كما هو الحال بالنسبة لمحفوظ الذي بقي مشدوها للكتابة الروائية عن شخصية حمزة المزلوط جاره، فهذا الهوس جعله يغرق في متاهات وغياهب الحزن والكتابة التي أثّرت على شخصيته وعلى علاقاته الاجتماعية مع المقرّبين والمحيطين به في حيّه الذي يقطن به، لقد أصبح ينفر من جميع من هم حوله حتّى من زوجته ربيعة، يقول السارد:

"وقف أمام المرأة التي انعكست عليها صورته.. بدا بقامته المديدة وجسمه التحيل أكثر حزنا أصبح شجرة جرداء في صحراء قاحلة، تجرّ شيئا من الفشل يا محفوظ، صعبة هي الكتابة.. معاناة حقيقية.. مغامرة نحو المجهول، لن تفعل شيئا ما دمت في أوهامك غارقا، انفض وخض التجربة القاسية هراء كلّ هذا التفكير"¹¹.

وأما بخصوص شخصية "حمزة المزلوط" يقول عنها السارد "وسيكّتب عن الرجل الذي سبّ أصله وحيّه ومدينته وزوجته (خضرة)، وكسر عربته أمام دكان (سي الطيب)، ثمّ هاجر إلى الجزائر العاصمة تاركا وراءه ذكريات حزينة، نسي حمزة حيّ الرق، الخنزير أصبح رجلا متزنا، يملك الفيلات والسيارات، ويسافر إلى أوروبا وأمريكا، أصبح شخصا مهابا، بائع الحلوى المزلوط قفز إلى القمة وبسرعة، فنجح في الحياة ولكنّه باع نفسه للشيطان، ولتلك المغنيّة المستهترّة المعروفة باسم (الشيخة الزنانة)"¹².

فالشخصية الروائية بحسب مفهومها عند كتاب ونقد الرواية الحديثة "هي شخصية ورقية (كيان وقي) تتمزج بالخيال الفني للروائي (الكاتب) ومخزونه الثقافي بشكل يستحيل معه أن نعتبر تلك الشخصية الورقية، مرآة أو صورة حقيقية لشخصية معينة في الواقع الإنساني المحيط لأنّها شخصية من اختزال خيال الكاتب"¹³، على أن جميع شخصيات هذا العمل الإبداعي المختبّرة من قبل المبدع ما هي إلاّ تقلّص واختزال "لرؤية العالم" لدى الكاتب بصورة أو بأخرى، وذلك ما بالتحديد ما تبدى لنا بصورة جليّة من خلال شخوص رواية "الانهار" التي يعتبر "محفوظ" شخصية رئيسة فيها وممثلا لأحد الفئات الاجتماعية الكائنة في المجتمع الجزائري.

لقد تكالبت عليه الظروف المعيشية وأثقلت كاهله كما استبدت به الوسواس والهواجس التي لم ترحم ضعفه وقوة حيلته واستولت على منطق تفكيره الذي أضحى مشوشا وتائها لم يجد طوق نجاة يأخذ بيده إلى برّ الأمان، ما دفع به في آخر المطاف إلى أن الاستسلام والرضوخ للواقع كرها لا طواعية، خاصة إذا ما علمنا بأنّه في نهاية المطاف "محفوظ" فرد ينتمي إلى الجموع البشرية التي هي أساس المجتمع كلبنة أساسية فهو الآخر بمثابة سلطة عليا تحتكم إليها جميع الفئات الاجتماعية على اختلاف مستوياتها المعيشية والطبقية.

وبطبيعة الحال فلحيّ "الرق" الذي يقطن به "محفوظ" عادات وتقاليد وأطر وثوابت هي بمثابة دستور حياتي عليهم أن ينصاعوا إليها دونما إكراه منهم، وأمام حالة الضعف والتقهقر التي آل إليها "محفوظ" وجد نفسه عرضة للشبهات والأقويل جزاء الممارسات والتصرفات الغير مقبولة والمبررة التي أقدم على فعلها في حي "الرق" الذي يقطن به، فالوضع النفسي الحاد والمتأزم الذي

آل إليه "مخفوظ" كان بفعل عاملين أساسيين أولهما الفقر والعوز المادي الذي كان يتخبط فيه، ثانيهما حالة النفور والإهمال والمعاملة الجافة التي أودت بزوجته "ربيعة" إلى القيام بتصرفات حرّكت هاجس الشك والوساوس تجاهها ليستقر في قرارة نفسه زعمه الباطل عندما ظنّ بأنها أقمت على خيانتته، هذين العاملين الاجتماعيين كان كفيّلين بأنّ يدفعنا بـ "مخفوظ" في آخر المطاف إلى الاختيار والاستسلام لخيوط الشك والتفكير والهوس الذي غزا مخّه وأصبح فكرة قارّة لا بد له من بلوغ مناصها مهما كلفه الأمر، ذلك أنّ كلّ المنافذ قد سدّت في وجهه إذ ذاك لم يجد ملاذاً آمناً يأوي إليه، فوضعه الاجتماعي والتفسي مضطرب ومشحون ولم يستقر على حال.

لقد أصبح متعارفاً لدينا بأنّ هناك ثنائيات ضدّية تحكم منطق العيش في الكون والمجتمع كنموذج مصغّر بما ينطوي عليه من فئات اجتماعية ومختلف عاداته وقيمه، نجد قوى كثيرة متصارعة فيه على غرار (القوي، الضّعيف)، (الجاهل، المثقف)، (الغني، الفقير)، ضف إلى ذلك جدليّة الأنا والآخر كونها من الدّراسات الثّقافية المعاصرة التي تعنى بالبحث وتقضي أشكال الصّراع الحضاري القائم في الرواية العربية منها والجزائرية على وجه التحديد شكّلت في رواية "الاختيار" أحد البنى المتصارعة في المجتمع، "فالأنا" هنا تمثّلها شخصية "مخفوظ" ككاتب مثقّف يمثل المجتمع الجزائري بكلّ تناقضاته وصراعاته وعاداته وتقاليده وأعرافه، أما الآخر فتمثّله شخصية "حمزة المزلوط" كطرف نقيض تماماً لـ "مخفوظ" لقد حرق القوانين والأعراف وداس على القيم، كي يتسنى له البحث عن حياة أفضل تختلف عن تلك الحياة البسيطة المفرغة التي يعيشها في حيّ الشّعبيّ "حيّ الرّق".

بات انتقاء الأمكنة الروائية ضرورة حتمية لا غنى للكاتب عن توظيفها باعتبارها من أهمّ العناصر الفنيّة المحركة للعمل السّردى ككلّ، لتمكين المبدع من التّأثير الفعّال الجيّد لأحداث عمله المبدع، حتّى يتسنى لشخص الرواية الانغماس في الرّؤيا المخولة إلى الرّوائي تقديمها، وكأنّك حالما تشرع في قراءة هذا العمل يتجسّد في مخيلتك هذا الإنتاج الأدبي كصورة مقبسة من الواقع المعاش في مجتمع معيّن دون أن تتناسى ما للكاتب من براعة في التّصوير والتّكثيف الدّلالي الذي يرفع بقيمة وأهمية هذا العمل الإبداعي من مصاف المرأة العاكسة إلى عمل أدبي تتساوق فيه البنية الاجتماعية مع البنية النّصية.

وجد "محمّد مفلّاح" من خلال رواية "الاختيار" ضالته في المكان الرّوائي وبخاصّة "حيّ الرّق" فهذا الحيّ شعبيّ كمكان مفتوح جعل منه مكاناً أساسياً وأرضية خصبة جرت على أرضها أحداث هذا العمل الرّوائي المبدع، ضف إليه معظم الصّراعات والتّناقضات الحاصلة في المجتمع وحتّى رصد مختلف متغيّرات البنى الاجتماعية، كما ضمّ إليه نماذج عديدة من شرائح المجتمع، وعلى غرار الأمكنة الروائية الأخرى التي استعان بها الرّوائي لبلورة أحداث عمله الإبداعي هذا وإخراجها في ثوب أدبي تروق له عين القارئ الذي لم يعد مجرّد متلق في عرف النظريات والمناهج النّقدية الغربيّة "ولعلّ وظيفة المكان تكمن في أساساً في كونه حيّزاً يحتضن المادة اللّغوية التي بها يتشكل العمل الأدبي، أو بعبارة أخرى يلجأ الكاتب إلى توظيف المكان ليجعل منه متكأً أو قالبا يمكنه من أن يسكب مادته اللّغوية... إنّ المكان بقدر ما يساعد الكاتب على حصر القول ومحاصرة الأفكار ووضع الإطار العام لمعمله، بقدر ما يمنع العمل الأدبي من الانفتاح ويحرم القارئ من التمتع بلذّة أفق أرحب"¹⁴.

والجدير بالذّكر هاهنا بأنّ شخصيات الرواية قد تضافرت أغلبها لتعكس لنا ظواهر اجتماعية باتت متفشية وعادات دخيلة ومنافية للعرف السائد في المجتمع الجزائري ككل والتي لم يشهد لها انتشار في فترة زمنية خلت، وذلك بالتحديد ما حاولنا تقصّيه من خلال رواية "الاختيار" نحن كباحثين أكاديميين بصرف النظر عن الأعمال الروائية الجزائرية التي عكست مجمل التّحولات الاجتماعيّة التي شهدتها بنية المجتمع الجزائري برومته وعقب مراحل زمنية متعاقبة خلّفت كلّ منها خدشا في البنية المجتمعيّة وبناءها الفنيّ العام.

وقبل هذا بقليل نجد بأنّ التحوّلات السياسية في المجتمع الجزائري أثرت تأثيراً كبيراً إذ حاولت تحويله من مجتمع القبيلة والدولة التقليدية إلى مجتمع الدولة الحديثة، فأولى صور الاختلال في بنية المجتمع الجزائري ارتبطت بالوجود الاستعماري وذلك بعد إدخاله تغييرات على كافة الأصعدة قصد جعل المجتمع أكثر انسجاماً مع الحداثة ومتطلبات العصر، أمّا "مرحلة ما بعد الاستقلال التي عرفت تنوعاً كبيراً في المواقف والرؤى حول مختلف القضايا الاجتماعية، والتوجهات السياسية والفكرية، وحول القضايا الفنية أيضاً، كما عرفت تأثيراً بالأحداث السياسية الكبيرة التي مرّت بها الجزائر، وخاصة انقلاب 19 يونيو 1965، وأحداث أكتوبر 1988"¹⁵.

من أهمّ الفترات التاريخية التي أحدثت تحولات جذرية في المجتمع الجزائري على كافة الأصعدة الحياتية بما فيها الاقتصادية، الثقافية الاجتماعية نذكر فترة السبعينيات من القرن المنصرم فعن مزايا هاته الفترة يتحدث الناقد عامر مخلوف "وإذا كانت فترة السبعينيات هي أغنى مرحلة في الإنتاج الروائي فإنّ ذلك يعود إلى التحوّلات الديمقراطية التي شهدتها هذه الفترة "الثورة الزراعية، ديمقراطية التعليم، التسيير الاشتراكي للمؤسسات، الطبّ المجاني... إلخ"، وتغيير موازين القوى في ساحة الصراع، وهكذا جاءت الرواية تجسيدا فنياً لهذه التحوّلات -رغم التفاوت والتناقض- الذين ليسوا سوى وجه آخر للتناقض الاجتماعي"¹⁶، القارئ والكائن.

عكست الرواية الجزائرية عبر فتراتها التاريخية إلى يومنا هذا الواقع بحرفية، وهنا نجد الروائي الجزائري محمد مفلح من خلال رواية "الانهار" قد عكس واقع ما يجري في بيئته المحلية من خلال رصد لظواهر اجتماعية بات يعاني منها المثقف الجزائري اليوم، ثمّ إنّه استطاع وبحرفية أن يبين لنا كيف لهذه الظروف المعيشية القاهرة من فقر متقع وضغوطات نفسية ووضع اجتماعي عويص من أن توجه سلوك الشخصية الرئيسية "محفوظ" الذي يمثل صفة "البطل الإشكالي" السلي المقهور نفسياً، وفي محاولة منه للتخلص من هواجسه فإنّه يتحرّر من القيود والضوابط الاجتماعية باعتبار المجتمع سلطة عليا وموجه لسلوك الجماعات الاجتماعية، ذلك أنّه أقدم على خيانة زوجته "ريعة" كما أصبح يتعاطى الخمر.

إنّ جلّ ما قام كان بحجة التخلص من هواجسه المخيفة وواقعه المتأزم الذي لم يعد يطاق وفشله وعجزه الدريع عن بلوغ مناص الكتابة الروائية التي استبد به هوسها، وما ساعد على تقديم رؤية الروائي محمد مفلح هو اعتماده لتقنيات سردية أسهمت في تقديم المتن الروائي في حلّة تخلو من النمطية والمعطف الكلاسيكي التقليدي الذي لازم الرواية الجزائرية حيناً من الزمن، من خلال كسره لخلخله الزمن السردية للمتن الروائي والاستعانة بدلاً من ذلك بالمفارقات الزمنية بغية جعل القارئ مشدوها للرواية متشوقاً للنهاية التي سيعلم عنها الروائي في آخر عمله الروائي المبدع.

إنّ رؤية العالم "vision de monde" هي الأساس الذي قامت عليه بنوية "غولدمان التكوينية أو التوليدية" ذلك أنّه من خلالها "يطرح مقولة أساسية هي أن هناك تطابق بين الفنية والبنية الاجتماعية ولا يمكن فهم هذا التطابق إلّا من خلال رؤية العالم"¹⁷، ثمّ إنّ "رؤية العالم بما تعتمد عليه هي صلب فكرة البنية التي تقاس بها الأعمال الأدبية عند غولدمان"¹⁸، كثيرة هي المقاطع السردية في رواية "الانهار" التي جسدت رؤية الروائي محمد مفلح للعالم يقول السارد:

"الكتابة ولادة عسيرة وطموح محفوظ لا حدود له... على منضدته المتواضعة، أوراق مبعثرة وقلم جاف، تأوه متأماً، آه لو كانت له آلة كاتبة لتغلب كلّ الصعوبات، اللعنة على الفقر، وعلى الحظ الذي رماه في هذا الحيّ الشعبي، استولى عليه القلق المخيف، لم يستطع تركيب جملة واحدة عن شخصية روايته الجديدة، عن (حمزة المزلول) جاره القديم، بائع الحلوى الذي حرق الجدار، تخلّص من حياة الرّق، وأصبح رجلاً ثرياً في الجزائر العاصمة"¹⁹.

وفي سياق آخر يضيف السارد "...همس ساخطا: "إنها الموم يا محفوظ"...حقاً إن الموم تثبط عزيمة العمل، وتقتل الإرادة الفولاذية، ولكن هو لم يصدق مثل هذا الكلام كثيرون هم ضحايا الموم الذين أبدعوا في الفن والأدب، لقد قرأ كثيراً عن هؤلاء الصعاليك الذين تحدوا الظروف وأخضعوها لإرادتهم القوية.. وما سر هذه القوة التي مكنتهم من الكتابة؟ أهي الموهبة أم الإرادة أم هناك شيء آخر؟"²⁰، وبذلك طرح الروائي أولى صور الصراع الطبقي الحاصل في المجتمع من خلال شخصيتين "محفوظ" و"حمزة المزلول" فكلاهما ينتمي إلى حي شعبي فقير تنعدم فيه روح الحياة، غير أن "حمزة المزلول" بعكس جاره "محفوظ" قد تجاوز حد العتبة الفاصل بينهم وبين الطبقة المترفة والغنية، بحيث لم يتسنى له ذلك إلا بعد أن تحرر من قيود وضوابط المجتمع التي كان يحتكم إليها.

ساعدت شخصيات رواية "الانهار" وهي مجتمعة في بلورة رؤية محمد مفلح للعالم، وتحلّى ذلك من خلال العلاقة الحميمة والوطيدة التي ربطتها مع الشخصية الرئيسية "محفوظ"، لقد كان لكل من شخصي الرواية دور في تأزم الوضع النفسي لشخصية محفوظ، بدءاً من شخصية "حمزة المزلول" التي جعل منها الروائي محمد مفلح شخصية ورقية متخيلة في حين أنه من شخصي الرواية والذي لم نعرف عليه إلا من خلال تقنية "الارتداد" التي استعان بها الروائي كمفارقة زمنية لسد ثغرة غياب هذه الشخصية في حاضر سرد أحداث الرواية يقول السارد "تذكر محفوظ اليوم الذي تقدّم فيه نحو عربة حمزة المزلول، كان طفلاً خجولاً قطعة "دورو" وانتظر في حياء...، كان حمزة المزلول شقياً وقد صبرت خضرة على معاملته الوحشية"²¹.

فهوس الكتابة عن هاته الشخصية قد استبد "بمحفوظ" ولم يفارق خاطره ومنطق تفكيره البتة، ضف ذلك إلى زوجته "ربيعة" التي ضيّقت عليه الخناق بسبب إهماله لعلاقتها جسدية هي الأخرى رؤية مأساوية عن الوضع الذي من الممكن أن تمر به أو حتى تعايش معه امرأة أخرى من بنات جنسها، تتمثل لوجهة النظر هذه من خلال قول السارد:

"اهتزت في مكانها، ليست جارية حتى تتحمل هذا الوضع المهين، صاحت في وجهه: ولم تزوجتي؟ ألبقي في غرفتك وحيداً؟ أنا لا أقبل هذا الوضع المهين."²².

فهي الطرف النقيض من وجهة نظر زوجها الذي كان يمجتها لرتابة معاملتها وتفكيرها المحدود الذي لا يبت فيه روح شغف الكتابة عن شخصيته المتناقضة والذي استبد به إلى درجة أنه أصبح هاجساً لا بد من بلوغ مقصده ككاتب يحمل غاية ورسالة نبيلة يقول السارد في هذا الصدد "ارتعش. اللعنة على المرأة، كذب من قال وراء كل عظيم امرأة، لن يكتب حرفاً مادامت هذه الجاهلة في بيته، أخطأ حين اقترن بها، فهي لا تفهم في الثقافة والفن، ولا تقدّر موهبته ترى في القراءة والتأليف مشقة ترهق الفكر وتضعف البصر وتعب الجسد"²³، ضمن "محمد مفلح" رؤيته للعالم من خلال رواية "الانهار" ففي البدء جسّد هذه الرؤيا العنوان كعتبة نصية تشي بدلالات عديدة من شأنها أن تقدّم رؤياه في هذا العنوان، ثم ما لبثت هذه الرؤية أن تتضح بصورة واضحة تكشف عنها الصراعات النفسية والتناقضات الاجتماعية لشخصيات الرواية التي أعلن الروائي عنها وفي علاقتها المباشرة مع الشخصية المحورية "محفوظ".

إن الاهتمام بالشخصية الرئيسة في العمل الأدبي وإعطائها الأبعاد الفنية الكفيلة يكشف عالمها وتناقضاتها ونوازعها، وأشواقها وآمالها وأفراحها وأحزانها، غدا من أهم الواجبات التي ينبغي للروائي أن يلتفت إليها"²⁴.

فأحداث الرواية التي جسّدتها هذه الشخصيات الثانوية من خلال تموضعها وصراعاتها وعلاقتها بشخصية "محفوظ" فإنها عبّرت عن انهمار النظم الفكرية والعادات المتوارثة ليحل محلها ظواهر وآفات اجتماعية وعادات لم يشهدها المجتمع الغليزياني

من قبل أدخلته في دوامة تناقض عقب هذا التغير الصّارخ والانفتاح الذي غزى منطق تفكير هؤلاء من قاطبة المجتمع، وفي ذات السياق نجد شخصية "وردة" المعلمة صديقة "ربيعة" هي الأخرى أعطت نموذجاً حياً عن المرأة المثقفة والواعية والمتحررة التي تجاوزت الأطر الاجتماعية في وقت كان ينظر فيه إلى المرأة من زاوية ضيقة تنحصر في كونها متوقعة في فكرة الزواج في سن صغيرة انجاب وتربية الأولاد عدا عن القيام بالأمور المنزلية ليس إلا، يقول السارد في هذا الصدد:

"قيل عنها: "إنّها فتاة متهورة... ذلّت أباهما السيّ الطيّب"، وقيل إنّها ليست عذراء، ومنهم أشاع أنّها حبلى.. ثمّ مرّت زوبعة الإشاعات وكثّت الألسنة عن ترديد الأخبار المعرضة التي أصبحت غير مثيرة لتداولها شهوياً، واجهت وردة تلك العاصفة بابتسامة ساخرة حتّى جاء اليوم الذي أصبح فيه الرجال أن يدرّس أبناءهم عند المعلمة وردة ذات الأخلاق الفاضلة"²⁵.

وعلى التّقيض من ذلك نجد شخصية "خضرة" الخيّاطة وزوجة والد ربيعة السابقة "عمار السّنديكا" وزوجة "حمزة المزروط" التي تركها وماتزال على ذمته ليلهث وراء ملذّات الدّنيا مع "الشيخة الرّثانة" معنّية الحفلات وإن كان المجتمع لم يشهد ظاهرة المغنّيات ومطربات اللّهُو والمجون في الحفلات والمناسبات العائلية كالأعراس من قبل، فمحمّد مفلح من خلال شخصية "الشيخة الرّثانة" أعطى لنا نموذجاً عن أحد صور التغيّر التي شهدتها مدينة غليزان يقول السارد:

"وهي تنتقل من حفل إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى لتطرب الرجال وتروي ظمأهم لسماع صوتها الرّقيق المثير للغرائز"²⁶:

فشخصية "خضرة" هي الفصيل الذي غيّر مجرى أحداث الرواية كونها ذات خبرة في فهم الرجال وذلك من خلال علاقتها بوالد ربيعة سابقاً، وزوجها الحالي "حمزة المزروط" حالياً، لتدخل في علاقة محرّمة مع زوج ابنة زوجها السابق "محفوظ" والتي كانت تكنّ لها كلّ مشاعر الكره والمقت، أعطى الرّوائي من خلال شخصية "خضرة" نموذجاً عن زوجة الأب السيئة التي تسيء معاملة أبناء زوجها ولا تريد لهم الخير، وفي هذا الصّدد يقول السارد "لقد تجاوز الخطوط الحمراء حين لجأ إلى بيت خضرة، ستشير إليه أصابع الاتّهام بالانحراف"²⁷:

ولأنّ كان دور الشّخصية منوطاً بتقدّم رؤية الكاتب للعالم "فإنّ هذا يعني ربط قيمة العمل الرّوائي بالمقدرة التّأليفيّة المبدعة لحياة الشّخصيّة، بحيث تمارس عبر سلوكاتها ومنطوقاتها ومجمل العلاقات التي تعيشها رؤية نقدية للعالم تجعلها تبدو أكثر حقيقيّة"²⁸.

فشخصيات الرواية الثّانوية وفي علاقتها المباشرة مع "محفوظ" كشخصية رئيسة، فإنّها أسهمت في تحريك عجلة أحداث الرواية ودفعها موائمة بذلك مع شخصية "محفوظ"، بصرف النّظر عن نوع هذه العلاقة الكامنة بين محفوظ وشخص الرواية، وفي هذا الصّدد يمكننا القول بأنّ الشّخصية الثّانوية "غالبا ما تدور في فلك الشّخصية الرئيسيّة أو المحوريّة، وتؤدي دوراً أساسياً معها في الرواية وتسهم في إبراز ذلك التّوافق أو التّحول، وتدخل في بناء ووصف علاقات الشّخصيّة الرئيسيّة وفي بنية النّص الرّوائي وتأخذ قسطاً في تطوّر الفعل ودفع الأحداث بفاعليّة تكاد تكون محدودة لأنّها تؤدي دوراً أقلّ أهميّة من دور الشّخصيّة الرئيسيّة"²⁹.

ذلك أنّها تسهم بشكل كبير في صيرورة أحداث العمل الرّوائي المبدع، وذلك ما يتبدى في صورة واضحة وجليّة من خلال علاقة الوفاق والموائمة التي يقيمها الرّوائي فيما بين الشّخصيات الرئيسيّة منها والثّانوية على حدّ سواء.

فرواية الانهيار كعمل أدبي عكست بحرفية كاتبها وعي الطبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها، ورؤاهم وتطلّعاتهم وإمكاناتهم بحيث أنّه بقي وفيّاً لبيئته المحليّة (غليزان) من خلال توظيفه لأماكن وشخصيات ومعالم تمت بصلة لمدينته وبالتالي فإنّ عمله

الإبداعي هذا "يجسد رؤيا العالم لهذه الطبقة أو تلك انطلاقاً من الواقع المعيشي والثاني فردي منطلق من خيال الفنان"³⁰، يقول السارد:

"لقد مرّت أربع سنوات وهو يمشي في نفس الاتجاه حتّى ألف المناظر التي لم يطرأ عليها أيّ تغيير مثل مدرسة زموشي بطابقها الوحيد، ودكان سي الطيّب الشيخ المهووس بلعب الدّامة، وعمارة (الشّوك) البيضاء التي تكاد تنفجر بسكانها، ودار الدّعارة ذات الزقاق الضيّق التي تستقبل زوّارها المتدثرين في جلابيهم الصّوفية خجلاً من عيون المارة وسكان المنطقة ثمّ المتوسطة الجديدة الموجودة قرب مركز الدّرك الوطني، وألف وجوه المتردّدين على الشّارع الطّويل ولكنّه لا يرغب في تغيير طريقه"³¹.

يضيف السارد في ذات الشّأن "المسافة بين بيته ومدرسة حيّ الزّمان بعيدة ولكن المعلّم محفوظ لم يفكر يوماً في الانتقال إلى مدرسة (زموشي) القريبة من حيّه"³²، يضيف السارد:

"جذب انتباهه سورة مقبرة (التّصاري)، فكر في الموت ثمّ في الحي الذي سيهدم، لا لن يقبل أن يهدم الحي الذي شهد ميلاده، سيظلّ حي الرق ثابتاً في موقعه، لن يكون مقبرة أخرى من يروج للإشاعات المغرضة ليدخل الرّعب في القلوب؟"³³.

فتعرج الرّوائي على مسميات الأحياء والشّوارع والمدارس والمقاهي التي تنوعت بين المغلقة والمفتوحة وحتى أماكن عبور أسهم في تعرية الواقع الذي يعيش فيه الرّوائي بشخصه، كما جسّد البنية الاجتماعيّة للمجتمع الغيليزاني ككل والتي بدورها أفصحت وأعربت عن رؤية المبدع للعالم، وبهذا تضاف رواية "الانخيار" إلى لائحة النماذج الرّوائية السّردية الجزائرية التي رصدت تغيير البنى الاجتماعيّة والفكرية للمجتمع الغيليزاني بخاصة والجزائري على وجه العموم، كما جسّدت هذه الرّواية جدلية المكان بحيث "مازالت حتى الآن القرية أو البلدة أو البلدية هي المكان المفضل في الرّواية الجزائرية..."³⁴.

وإذا ما تقصّينا المفهوم العام لمقولة "رؤيا العالم" فإنّها في أبسط تعاريفها مفهوم يفضي إلى نقل الكاتب أفكار طبقة معيّنة في المجتمع يسعى جاهداً إلى نقل هذا التّصور والواقع الاجتماعي المعيش دون إغفال جمالية العمل الإبداعي، "من خلال إسهام التّقنيات السّردية في بلورة هذه "الرؤيا للعالم" التي اعتبرها غولدمان معادلاً لمقولة "الوعي الجماعي" و "هي القدرة على احتواء الوعي الطبقي في مستوياته العقلي، التّقدي، والسيّاق"³⁵:

وهذا ما جسّده رواية "الانخيار" من خلال تقصّي الرّوائي لأنماط تفكير شخوص روايته التي تمثّل بعضها الشّخصية الواعظة المشدودة إلى الدّين والأعراف "سي الطيب، سي عدّة"، أمّا بعضها الآخر فجسّد الشّخصية السّاذجة المحدودة التّفكير "منصور، ربيعة"، أمّا البعض الآخر فجسّد الشّخصية المكبوتة والمنطوية على نفسها "محفوظ"، والتي تعيش في صراعات وتناقضات لا تبارح تفكيره البتّة وعلى إثرها أصبح يعيش في تقهقر وصدام ووضع نفسي متأزم، وكلّ ذلك انجر عقب التّحولات التي شهدتها المجتمع الجزائري إبان الاستعمار وعقب الاستقلال وحتى إلى يومنا هذا، فالأديب "كائن طبقي أو مجموعة من العلاقات الاجتماعيّة في التّحليل الأخير، فالأديب لا يبدأ من الصّفر فهناك مواد سابقة مثل العادات والتّقاليد والموروث ودرجة التّطور الاجتماعي والأديب، فالأديب هو الأداة التي يعبر بها المجتمع عن نفسه من خلالها أو أداة الطبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها الأديب"³⁶:

فهو ابن بيئته ولا يمكن له بأية حال من الأحوال أن يتنصل من المهمة المخوّل بها كعضو فاعل في المجتمع، والرسالة المنوطة به لتقديمها في خضم ما يجود به حبر قلمه من نتاجات روائية تعكس رؤيته للعالم وتحتل موقفه من الواقع الذي يعيش فيه، ومن جملة ما أورده السارد في هذا الصدد "ولكن محفوظ لا يفكر مثل أبناء الحي ولا يجري وراء الملذات في بادئ الأمر ظلّ نفسه شاداً ولن يتمكن له من أن يتكيف مع الوسط الاجتماعي المضطرب الذي احتلّطت فيه المفاهيم الجديدة مع المعتقدات البالية.. وصار الإنسان في زمن الثورات الثلاث يعيش تناقضا رهيبا.. يحب ويكره... يصلي ويتناول الخمر.. يتمنى أن تتحرر المرأة ولا يرضى أن تشغل أخته أو زوجته، ويردد أن الشرف قبل المال، ولكن إذا أراد أن يصبح غنياً فعليه أن يدوس على كلّ القيم الاجتماعية، وهذا ما فعله حمزة المزلول الذي تعلّق بالشيخة الزانة السيئة السمعة"³⁷.

فهذا التحديد يحدو بنا إلى القول بأنّ "الأدب صورة للواقع الاجتماعي الذي أنتجه أو أنتج فيه وإنّ صورة الأدب تتغير بتغيّر صورة المجتمع، إنّ التغيّرات الاجتماعية تفرض تبدّلاً في الرؤية والمواقف والمفاهيم وكذلك في الأشكال واللغة والأديب عضو في جماعة"³⁸، فجوهر الظاهرة الاجتماعية يكمن في عملية اعتماد البنيوية التكوينية كمنهج في دراسة وتحليل النص الأدبي، القائم على مجموعة من التّقابلات بين ما هو داخلي نصّي إلى ما هو خارجي اجتماعي، أي أن يكون لصيقا بواقعه في جميع الأحوال، فرؤية العالم يجسدها الروائي في "رواية الانهار" ومن خلال استجلاءنا للعلاقة بين العمل الأدبي والعالم الخارجي الذي هو بطبيعة الحال يضمّ إليه شخوص الرواية على اختلاف توجهاتهم وایدولوجياتهم ومواقفهم إزاء المجتمع بحيث "يرى غولدمان بأنّ الطبقات الاجتماعية هي التي تكوّن البنية التحتية (الرؤية للعالم)، يمكن للحد الأقصى من الوعي الممكن لطبقة اجتماعية ذات رؤية سيكولوجية منسجمة للعالم أن تعبّر عن المستوى الديني والفلسفي والأدبي والفني"³⁹.

يعتبر "البطل الإشكالي" أحد الأجهزة المفاهيمية التي أسفرت عليها طروحات غولدمان البنيوية التكوينية ففي مفهومه العام هو "ما يطبع بطل الرواية الكلاسيكية، ومن منظور لوكاتش وغولدمان يعبر المصطلح عن شخص يتموضع وجوده وقيمه أمام مشاكل مستعصية، حيث يصعب عليه التسلح بوعي واضح وحاسم أمام الأحداث"⁴⁰.

فالمصنف للرواية الجزائرية عن كتب يلحظ طغيان شخصية البطل الإشكالي، والذي لم تصوّره على أنّه بطل خارق للعادة مثلما تصوّره الملاحم والأساطير والسير الشعبية، يمتلك من المؤهلات ما يجعله يسمو عن صفة البشر العاديين الذين يعيشون في واقع مرير، إنّما تصوّره ككتاب الرواية الجزائرية على أنّه إنسان عادي يعيش ويتعايش مع واقعه عدا أنّ لهذا البطل برغم ما يكابده من خلال شخصيته في الرواية رسالة وهدفا نبيلاً أو بالأحرى يأتي ممثلاً عن رؤية طبقة اجتماعية أو فئة عمرية من أبناء مجتمعه.

كما أنّه يجسّد ظاهرة اجتماعية وكلّ ذلك يتمثّله من خلال الشخصية والدور الذي أوكله إليه الروائي، ف"محفوظ" من خلال رواية "الانهار" قد جسّد شخصية البطل الإشكالي الذي تصوّره الروائي، وتجلّى هذا البطل من خلال شخصية "محفوظ" الذي تملكه حاجس الكتابة الروائية عن شخصية "حمزة المزلول" إلى درجة الهوس هذا من جهة، ومن جهة أخرى علاقته المتوترة بزوجه "ربيعة" التي ضيّقت عليه الخناق إلى درجة أنّه لم يعد يطبق رؤية وجهها ما دفع به في آخر المطاف إلى خيانتها مع زوجة أبيها السابقة "خضرة" وزوجة "حمزة المزلول" التي تركها غارقة في هوموها، ومن جهة ثالثة عيون الحي التي ترصد له في كلّ صوب وحدّ تارة تنصح وتارة تلسع وتارة تلتزم الصمت عن قول الحق، ففي خضم هاته التناقضات والأزمات التي تكالبت على محفوظ ولم تلبث أن تنفك عنه، لأن وجد نفسه في آخر المطاف مستسلماً لشارك تعاطي الخمر والخيانة الزوجية، وفي أمام كلّ هذه

الصّغوبات النفسية لم يجد محفوظ لنفسه طوق النجاة ليعلم الروائي استسلام محفوظ وانتياره بفعل جريمة القتل الشّنعاء التي ارتكبها في حق زوجته "ربيعة" بعد توهمه بخيانتها له مع صديقه منصور.

ثمّ إنّ بمؤشر سردي بسيط تراءى لنا بأنّ الروائي يسرد ببراعة وحرفيّة أحداث عمله الروائي المتخيّل من عمق بيئته المحليّة، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد "الحايك" الذي هو لباس تقليدي جزائري وهو رمز الحياء والعفة وزينة المرأة الجزائرية الحرّة، قدّم لنا الروائي نموذجين سرديين من خلال رواية "الانقيار" تعبّر عن ثقافة الكاتب المحافظة النّابعة من طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، حتّى إنّ علت في المجتمع أصوات أخرى تدعو إلى مواكبة روح العصر والانفتاح الصّارخ، في الوقت ذاته الذي لم تعد ترى في هذا الرّبي التقليدي سوى لباس يقيّد حرية المرأة، التي أضحت تعتبر نفسها اليوم متحرّرة من قيود وأعراف المجتمع وتقاليد السّائدة، فمن خلال شخصيّة "ربيعة" وعمتها "حليمة" جسّد محمّد مفلّح شخصية المرأة المحافظة، يقول السّارد في هذا الصّدّد "ثمّ تلّفت بالحايك الأصفر، وخرجت من البيت.. ووجرت إلى الحايك وتلّفت به وخرجت وهي ترّدد:

ستندمين، ستندمين" ⁴¹.

5- البنية النّصيّة لرواية "الانقيار":

غاية محمّد مفلّح المرجوة وهو بصدد كتابة رواية "الانقيار" هي تجسيد مقولة غولدمان التي تقتضي تركيز اهتمامه على دراسة البنية الفكرية والمجتمعية للنّص من خلال التقنيات السّردية التي استعان بها الروائي وهو بصدد استجلاء درجة تمثّل النّصوص الإبداعية لفكر المجموعة الاجتماعية أو الطبقة التي ينتمي إليها، فالبنية النّصيّة التي شكّلت الإطار والقالب الذي تبلورت في خضمه البنى الفكرية والاجتماعية التي سعى الروائي محمّد مفلّح إلى تقصّيها واستجلاء ملامحها من خلال عمله الموسوم بـ "الانقيار"،

وفيما تراءى لنا من خلال قراءتنا لفحوى هذا العمل بأنّ الروائي استعان بالجميل الفعلية كان أكثر من توسله في إغناء المضامين والرؤى بالجميل الاسميّة، فكثرة استخدام الجمل الفعلية أو بالأحرى الأفعال الماضية والمضارعة ماهي إلّا دلالة على سيّورة سرد الأحداث التي ما انفك الروائي يوظفها تباعاً خدمة للحالة الشعورية التي ضيّقت الخناق على الشّخصيّة الرّئيسة "محفوظ" وما توظيفها إلّا دلالة على الدفقة الشعورية المتأججة التي باغتت الروائي لحظة الكتابة، فاستخدام أفعال السّرد الماضية دليل على الحركة وعدم الثبات واحدة بالعودة إلى الماضي الشّخصية ثمّ حاضرها المعاش الذي حاصرته الموموم، ميّز تلك الوقفات والمقاطع السّردية فسيّفساء من معين اللّغة الشعورية التي ميّزت لغة الكتابة في رواية "الانقيار" لتجعل منه علامة فارقة تضاف إلى نتاجات الأدب الجزائري الحديث منه والمعاصر.

على اعتبار أنّ اللّغة هي وعاء الفكر والقالب التعبيري الذي يسكب فيه الكاتب كلّ ما يجول في خاطره من أحداث متخيّلة و شخوص روائية، لقد قدّم الروائي محمّد مفلّح أحداث الرواية ضمن لغة شعريّة مازج فيها بين الوصف الواقعي البحت و بين مختلف الاستعارات والتّشبيهات، التي ساقها الروائي وتوسل بها لإضافة مسحة جماليّة تسمو بعمله من الواقعية الفجة إلى عالم أرحب وأوسع من الخيالات والأوصاف والتّعوت التي تضمن للقارئ قراءة شيقّة مانتعة قبل كلّ شيء، وكثيرة هي المقاطع السّردية المجازية الاستعارية لكن آثرنا أن نعطي مثالا عنها بقول السّارد:

"وكاليتيم المنبؤ، تطاير من عينيه شرر الانفغال، وكادت الدّموع أن تسيل من عينيه الحائرتين، خشي أن تسيل دموع الموت البطيء على خدي وجهه الذابل كليمونة معصورة"⁴².

فهذا التّوصيف الاستعاري التّشبيهي ما هو إلّا تعبير عن البعد النفسي لشخصية محفوظ الدّي حاصرته الموم وأرهقت كاهله، فهو يشكل الملامح الدّاخلية للشّخصية وكلّ ما هو كامن داخل النّفس ويعدّ من الملامح الدّاخلية"⁴³.

إنّ ما يلحظ على اللّغة المستعملة من قبل الرّوائي فإنّه غلب عليها توظيف اللّغة العربية الفصحى، عدا عن بعض المسمّيات كشخصية "سي الطيب، سي عدّة، عمّار السندیکا، محمّد اللّاز، حمزة المزلول"، والألفاظ كـ "ههه" "دورو"، "بومنتل"، والأقوال المأثورة التي كنّا نشهد لها حضورا من خلال الرّواية بين الفينة و الأخرى من قبيل "أهم أرماني في البحر، أنا في واد وأنت في واد آخر، هذا الدّينار لفلان وهذا الفقر لعلّان"، وتوظيفها يأتي موازيا مع توافق البنى التّصية مع البنى الاجتماعية ضمّه النسيج العام الدّي أعلت البنيوية التكوينية من سلطته، ومن جهة ثانية كدليل على أنّ الرّوائي لصيق بواقعه.

ضف إلى المقاطع الحوارية التي تراوحت بين الحوار المباشر الدّي تجلّى من خلال تناول محفوظ لأطراف الحديث سواء مع زوجته ربيعة أو حتّى مع بقية شخوص الرّواية، وبينما تجلّى الحوار الدّخلي من خلال الحديث محفوظ النّفس (المونولوج) عمّا يعتل في قرارة نفسه من هواجس وأوهام ومخاوف وهلمّ جرأ، وما ميّز لغته الرّوائية أكثر هو تلك المقاطع السردية التي ضمت تنّاصات من القرآن الكريم مما يدلّ على ثقافة الرّوائي المحافظة الدّي ما انفك يضمّن فيها في أغلب نصوصه الابداعية، والدّي لم يتوان لحظة في التعبير عنها من خلال توظيفه لاقتباسات لفظية وحتّى معنوية من أوصاف ودلالات من كتابه عزّوجل، رواية "الانهار" ضمّت في خضمها مقاطع سردية كثيرة مقتبسة من القرآن الكريم سنأتي على ذكر بعضها نحو يقول السارد:

"لا تيأس...رحمة الله واسعة.. كلّ نفس ذائقة الموت" وفي مقطع سردي آخر وردت عبارة "وهل من إنجاب البنين؟ لا أظن البنون زينة الحياة الدّنيا"⁴⁴.

من خلال ما تقدّم ذكره ومن خلال تقصّينا للعلاقة التي أقيمت في ضوءها توافقا ما بين البنية الاجتماعية التي آثر الرّوائي رصد تحولاتها، وبين البنية التّصية من خلال تسخير إمكاناته التّعبيرية لإحداث هذا التّوافق والانسجام، وجدير بنا القول في هذا الصّدّد "إنّ العلاقة المحدّدة للشّكل الرّوائي في ارتباطه بالحياة الاجتماعية كونه يعدّ الصّورة المطابقة للحياة الاجتماعية، وهنا يمكن الإقرار بوجود تشابه موضوعي بين خصوصيّة الشّكل الرّوائي وبين العلاقة اليومية للنّاس مع ظروف العيش"⁴⁵.

شهد المجتمع الجزائري منذ زمن عديد التّحوّلات والتناقضات في بنياته الاجتماعية والاقتصادية نتيجة للظّروف التاريخية التي مرّ بها، كانت نذير خطر هبّت رياحه على البنية الاجتماعية، مما أدّت إلى تشويه البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري ككل، ثمّ إنّ الأديب الجزائري هو الآخر قد وجد ضالته من خلال مختلف التّناجات الأدبية الرّوائية التي لوّنت أدبنا الجزائري المنشور ومن خلال عكس جلّ هذه التّحوّلات التي شهدتها البنية الاجتماعية وسكبها في قالب روائي فيّ يتوافر فيه من النّضج واكتمال ملامح فن روائي تروق له عين القارئ.

خاتمة القول: وفي ختام ورقتنا البحثية هذه ومن خلال حلّ المفاهيم والمصطلحات التي عرّجنا عليها في خضم هذا المقال وبناءً على ما جرى تقديمه من مادة علمية نخدم دراستنا يمكننا القول:

- الرواية الجزائرية كفن مستحدث وعبر فتراتنا التاريخية كانت سبّاقة لاحتضان ملابس وراهن الواقع، ذلك أنّها أصبحت بمثابة مجهر أدبي يتقصّى مختلف الظواهر والتغيرات التي مسّت البنية العامة للمجتمع الجزائري، وفي كنف هذه التغيرات تشكّلت ملامح هذا الشكل الأدبي.

- وانطلاقاً من المقولة القائلة بأنّ الأدب والنقد هما وجهان لعملة نقدية ألا وهي العملية الابداعية، أمكننا القول بأنّه كان لتأخر الممارسات النقدية الحقّة دواعي وأسباب كان من بينها تأخر ظهور الفن الروائي المكتمل الملامح والناضح فنّيًا في حدّ ذاته، والذي أعلنت آراء النقاد عن بدايته الجادة مع مطلع السبعينات.

- يأتي الروائي الجزائري الفدّ "محمد مفلّاح" في طليعة الكتاب الجزائريين الذين برعوا بحق في رسم تمثّلات الواقع من خلال أعماله التي أعربت عن مدى ملازمته لواقعه المعاش وبالأخص بيئته المحلية، بحيث أسفرت نتاجاته الأدبية الروائية عن رصد الروائي لمجمل المتغيرات التي لامست جوهر البنية الاجتماعية من عادات وتقاليد، عمران، تغيّر في نمط التفكير والذي فرضه الانفتاح الصّارخ، الآفات الاجتماعية، عادات دخيلة عن ثقافة المجتمع... وهلمّ جرا.

- عكف النقاد الجزائريين على الأخذ بمطية "البنوية التكوينية" من خلال مقارباتهم النقدية التي ما لبثت تستلم عملاً أدبيًا حتى تشرع في وضعه تحت مجهر أحد المناهج النقدية التي من بينها بنوية غولدمان التكوينية التي أعربت عنها الممارسات النقدية الجزائرية، تلك المقاربات التي ضلّت تترنح حيناً بين النظري - من خلال رصد الخطاب النقدي ومقولاته وحيناً آخر من خلال الممارسات التطبيقية التي تبحث النصوص الروائية الجزائرية في جدوى تماثل البنى النصية مع البنى الاجتماعية التي تعدّ بمثابة مقولة أساسية أسفرت عليها خطابات غولدمان التكوينية.

-تعتبر رواية "الانهيّار" لمحمد مفلّح من النصوص الرواية الجزائرية و التي أعطى من خلالها أحد صور الاختلال والتناقض الذي مسّ البنية العامة لبيئته المجتمعية بخاصة، ذلك أنّه خدمة لمضامينه المرجوة سخر كل إمكاناته التعبيرية التي تشي لنا ببراعته الأدبية ومقدرته اللغوية، ومن خلال مقارباتنا النقدية البسيطة لرواية "الانهيّار"، أمكننا القول بأنّه قد ضمن الروائي رؤيته للعالم من خلال شخوص الرواية، كما تجسّد البطل الاشكالي في الرواية في صورته سلبية، عدا عن هذا فإنّ البنية النصية و بما اشتملت من تراكيب جمل وأوصاف واقتباسات ومفارقات زمنية تناسب تناسباً طردياً مع البنى الاجتماعية التي تظافرت من خلال الرواية لتكون التسيج العام لهذا النصّ الروائي.

-هوامش الدّراسة:

- ¹-مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، د ط، دار القصبة للنشر، حيدرة، الجزائر، 2000، ص3.
- ²-المرجع السابق، ص ن.
- ³-إبراهيم عبد التور، الممارسة النقدية في الرواية الجزائرية بين الذاتية والموضوعية قراءة في نماذج نقدية لروايات جزائرية (الملقّى الدّولي عبد الحميد بن هدوقة)، جامعة بشار، الجزائر، www.benhedouga.com/contact
- ⁴-ميحان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي - إضاءة لأكثر من سبعين تياراً نقدياً معاصراً، ط5، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، 2007، ص76.
- ⁵-عبد الوهاب شعلان، المنهج الاجتماعي وتحولاته من سلطة الإيديولوجيا إلى فضاء النص، د ط، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2008، ص55.
- ⁶-يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب العربي النقدي الجديد، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص146.
- ⁷-يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب العربي النقدي الجديد، ص152.
- ⁸-أبو المعاطي خيري الرمادي، عتبات النص ودلالاتها في الرواية العربية، " تحت سماء كوينهاغن " نموذجا، مجلة مقاليد، العدد7، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب (جامعة ملك سعود، ديسمبر، 2014، ص191.
- ⁹-عبد الحق بلعابد، عتبات (جيزار جنيت من النص إلى المناس)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ص67.
- ¹⁰-مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، ص68.
- ¹¹-محمد مفلّح، الانهيّار، د ط، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص7.
- ¹²-الرواية، ص9.
- ¹³-عديّ حاسم أحمد، أنماط الشخصيات ودورها في البناء السردى في روايات محسن الزملي، ط1، دار غيداء، المملكة الهاشمية الأردنية، 2017، ص18.
- ¹⁴-عامر مخلوف، الرواية والتحوّلات في الجزائر (دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية)، ص28.
- ¹⁵-أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوّره وقضاياه، ص127.
- ¹⁶-عامر مخلوف، متابعات في الثقافة والأدب -دراسة-، ط1، اتحاد الكتاب الجزائريين، دار هومة، الجزائر، 2002، ص274.
- ¹⁷-جمال شحيد، في البنيوية التركيبية، (دراسة في منهج لوسيان غولدلمان)، د ط، دار ابن رشد، بيروت، 1982، ص71-72.
- ¹⁸-صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، ط1، مؤسسة الشروق، القاهرة، 1998، ص130.
- ¹⁹-الرواية، ص6.
- ²⁰-الانهيّار، ص6.
- ²¹-ينظر: الرواية، ص21-23.
- ²²-الرواية، ص11.

- ²³ -الرواية، ص ن.
- ²⁴ -عدي حاسم أحمد، أنماط الشخصية ودورها في البناء السرد في روايات محسن الزملي، ص 40.
- ²⁵ -الرواية، ص 67.
- ²⁶ -الرواية، ص 52.
- ²⁷ -الرواية، ص 60.
- ²⁸ -بمى العيد، الرواية العربية -المنخيل وبنيتها السردية، ط 1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2011، ص 45.
- ²⁹ -عدي حاسم أحمد، أنماط الشخصية ودورها في البناء السرد في روايات محسن الزملي، ص 46.
- ³⁰ -عمر عيلان، قراءة في حقيقة العلاقة السوسولوجية وسيورتها، وقائع الملتقى الثاني حول الخطاب التقدي الأدبي المعاصر، خنشلة، مارس، 2007، ص 32.
- ³¹ -الرواية، ص 22.
- ³² -الرواية، ص ن.
- ³³ -الرواية، ص 26.
- ³⁴ -مصطفى فاسي، دراسات في الرواية الجزائرية، ص 67-68.
- ³⁵ -جون هال وآخرون، مقالات ضد البنيوية، تر: إبراهيم خليل، د ط، دار الكرمل، عمان، الأردن، 1986، ص 42.
- ³⁶ -شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، د ط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ص 74.
- ³⁷ -الرواية، ص 24-25.
- ³⁸ -شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، ص 74.
- ³⁹ -سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ط 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1985، ص 107.
- ⁴⁰ -المرجع نفسه، ص 128.
- ⁴¹ -ينظر: الرواية، ص 21-69.
- ⁴² -الرواية، ص 9.
- ⁴³ -عدي حاسم أحمد، أنماط الشخصية وبناءها السرد في رواية محسن الزملي، ص 73.
- ⁴⁴ -ينظر: الرواية، ص 113، ص 24.
- ⁴⁵ -فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية، دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة، ط 1، دار الكتب الحديث، اربد، الأردن، 2010، ص 119.